القسم الأول

المبحث الأول

ويتضمـــن:

الحيـــــاة السيـــاسيـــــة

الحيـــــاة الاقتصـــاديـــــة

الحيـــــاة العلميـــــــة

الحيـــــاة الـــــدينيـــــة

obeikandl.com

obeikandl.com

البعقوبي

عصره

١ ـ الحياة السياسية

إن للظروف السياسية أثرًا كبيرًا في جوانب الحياة كلها، ولا فرق في ذلك بين الأمور العلمية وبين الأمور العملية.

ولقد كان القطر العراقي الذي عاش في رحابه مؤلفنا البعقوبي قد خضع فترة طويلة للسلاجقة تزيد على قرن من الزمن وذلك لضعف الدولة العباسية واقتصار سلطانها على رقعة صغيرة، فقد كانت رقعتها واسعة دان لها جل العالم الإسلامي بالولاء، وهابتها الدول الأخرى لا سيما الروم.

ولقد ظهر السلاجقة في إيران في القرن الخامس الهجري الموافق للقرن العاشر الميلادي، ودخلوا في دين الله واعتنقوا مذهب أهل السنة، ثم لم يلبثوا أن سيطروا على خوارزم وبلاد فارس واتخذوا أصفهان عاصمة لهم وذلك بعد أن قضوا على الدولة البويهية هناك.

وقد استنجد الخليفة العباسي القائم بأمر الله بزعيم السلاجقة «طُغْرلبك»[١] للتخلص من سيطرة البويهيين فاستجاب لطلبه وقاتلهم وأخرجهم من بغداد، وبذلك انتهى سلطان البويهيين على الخلافة العباسية.

فنعمت بغداد في عهد ملكشاه[٢] بنهضة ثقافية في علوم الفقه والحديث

---

(١) طُغْرُلبك شاه بن أرسلان ـ آخر ملوك السلاجقة.

انظر: النجوم الزاهرة ـ ٦/ ١٣٤، ١٣٥ وانظر طرفا من أخباره في مختصر تاريخ دولة بني سلجوق ص (٢٦).

(٢) انظر أخباره في مختصر تاريخ دولة بني سلجوق (٥٢ ـ ٥٦).

وغيرها من العلـوم مما أتـاح للبعقوبي الإفادة من هـذه الحركة العلميـة والإسهام فيها .

هذا و إن تحديد رقعة الدولة العباسية في الفترة التي عاش فيها المؤلف أمر مهم ذو أثـر كبير على الحيـاة العلميـة ، لـذلـك كـان علينـا أن نشير إلى ذلك إشـارة موجزة ، فلقـد أصبحت حدود الدولـة العباسية في بلاد العـراق في الفترة الواقعة بين سنة خمسمـائة واثنتين وخمسيـن وسنـة ستمـائة وست وخمسين ، ـ وهي سنة سقوط بغـداد ـ أصبحت تمتد من قرية العقر عند حـدود أتابكية الموصل شمالاً إلى عبدان جنوبًا ، ومن القادسية غربًا إلى حلوان شرقًا .

وقد كـان الخليفة في هذه الفترة أحسن حـالاً وأقوى نفوذًا على البلاد ممـا كان عليه من قبل وقد ظل كذلك حتى أطاح التتار بالخلافة العباسية في بغداد .

ولقد عاش البعقوبي في النصف الثاني من القـرن السادس الهجري وطرفًا غير قليل من القرن السـابع وكانت هذه المدة التي عـاشها ممتلئة بـالأحداث الخطيرة المثيرة في مشرق العالم الإسلامي ومغـربه على حد سواء ، فشاهـد أحداث المنطقة التي عاش فيها ، وتتبع أخبار المناطق البعيدة عنه .

ففي أقـاليم المشرق الإسـلامي كان الصراع عنيفًـا قـائما على قدم وسـاق بين الشعوب المختلفة التي تشغـل تلك الأقاليم كالسلاجقـة والخوارزمية وغيرهم مما أشرنا إلى طرف منه قبل ذلك .

أما الشام ومصر فقد حكمهما الفاطميون المتشيعون وبذلك انفصلتا عن بلاد العراق التي تـدين بمذهب أهل السنـة ، وقد ظل هذا الانفصـال قائمًا حتى آل الأمر إلى صلاح الـدين الأيوبي ، فاستطاع القضـاء على الحكم الفاطمي في مصر وإعـادة أهلهـا إلى مذهب أهل السنـة ، وإقـامـة نـوع من الرابطـة بين الخلافـة العباسية وتلك الأقطار. وظلت هذه العلاقات الطيبة قائمة حتى سقطت بغداد

في أيدي التتار وقُضيَ على الخلافة العباسية قضاء مبرماً.

أما مكة والمدينة وبلاد اليمن فقد كانت تحت حكم الأيوبيين وظلت على ذلك حتى منتصف القرن السابع الهجري.

وأما طرابلس، وتونس فقد كانتا خاضعتين لحكم الموحدين وقد ظلتا على ذلك حتى سنة ستمائة وسبع وعشرين للهجرة، وأما الموصل فكانت خاضعة لحكم بني زنكي[١]. وأما إربل[٢] فكانت تحت حكم بني سبكتكين[٣] وبني أرشق. وقد كان من نتائج تعدد هذه الدويلات الصغيرة، واختلاف حكامها وتنافسهم أن انتشرت العداوة والبغضاء فيما بينهم، واتقدت نيران الصراع السياسي في المجتمعات الإسلامية؛ حقًا إن ذلك قد بدأ قبل مولد البعقوبي، لكنه ظل مستمرا طوال مدة حياته.

ولقد شاء الله تبارك وتعالى أن يخرج من أطراف الصين شعب مستبد يعز على العدِّ ويستعصي على الحصر هو شعب التتار، وأن يهبَّ على ديار المسلمين هبوب الإعصار، فاجتاح كثيرًا من البلاد الإسلامية يقصر الوصف عن وصفه حتى لم يبق بلد من بلاد المسلمين إلا وكان يرتجف خوفا منه، وينتظر أن يحين حينه على يديه. ولقد وصف «السير توماس أرنولد»[٤] ما قام به التتار عند غزوهم لبلاد المسلمين فقال: لم يعرف تاريخ الإسلام ـ على كثرة ما نزل به من الخطوب ـ هولاً أشد من غزوات التتار فقد انسابت جيوش جنكيز خان في بلاد المسلمين انسياب الثلوج من قمم الجبال، واكتسحت في طريقها الحواضر الإسلامية، وأتت على ما كان فيها من مدنية وثقافة، ولم يتركوا وراءهم من تلك

---

(١) انظر الأعلام للزركلي (٣/ ٨٤).

(٢) من أعمال الموصل وبينهما مسيرة يومين ـ معجم البلدان لياقوت (١/ ١٨٦ وما بعدها).

(٣) انظر طرفا من أخباره في ترجمة ابنه محمود بن سبكتكين الغزنوي ـ الأعلام (٨/ ٤٧).

(٤) توماس وُوكَرْ أرنولد THOMAS ARNOLD : مستشرق إنجليزي من أهل لندن ـ تدرج في مناصب عدة آخرها مديرًا لمعهد الدراسات الشرقية في لندن ـ له كتب بالإنجليزية في تعاليم الإسلام والخلافة والمعتزلة. (الإعلام للزركلي ٢/ ٧٧).

البلاد سوى خرائب وأطلال.

ففي شهر صفر سنة ست وخمسين وستمائة سقطت بين براثنهم عاصمة الدنيا، وقاعدة الحضارة، وموئل الخلافة ومدينة المنصور والرشيد والمعتصم فأنزلوا في ربوعها ما تشيب لهوله الولدان حيث استباحوا المدينة العريقة أربعين يوما بلياليها هدموا خلالها القصور والدور، ونسفوا المساجد والجوامع، وأحرقوا المكتبات والمدارس، وقضوا على المستشفيات والرُبْط، وأعملوا السيوف في الرقاب حتى سالت الدماء في الأزقة أنهارًا، ولم يسلم منهم إلا اليهود والنصارى حيث أمنوهم على أموالهم وأنفسهم من دون الناس.

فلقد كانوا يستدعون الرجل من أشراف بغداد وعلمائها فيخرج إليهم بزوجته وأبنائه وبناته فيذبحونه ومن معه ذبح الشياه ويسبون من يصطفونه من بناته. وكان في جملة من قتلوه المستعصم خليفة المسلمين، وقتلوا معه ولديه، وسبوا بناته الثلاث: فاطمة، وخديجة، ومريم، ولما انقضت الأيام الأربعون السود أصبحت بغداد قاعًا صفصفا لا يرتفع على منائرها أذان، ولا يُتلى في مساجدها قرآن، ولا تقام في جوامعها جمع، ولا يشع في مدارسها نور. ولقد اختلف المؤرخون في عدد من قتل من أهلها، ففريق قال: إن القتلى ألف ألف، وفريق قال: إنهم ألفا ألف أو يزيدون[1].

ولما انقضى الأمر المقدر كانت أجساد القتلى تملأ الطرقات كأنها التلال، ثم ما لبث أن سقط عليها المطر فتغيرت صورها، وأنتنت جيفها، وتلوث منها الهواء وانتشر الوباء، فتعداها إلى بلاد الشام، مات بسببها خلق كثير.

ولما نُودي بالأمان في بغداد خرج من تحت الأنقاض من كانوا مختبئين في الحفر والأقنية والمقابر كأنهم الموتى، فأنكر بعضهم بعضا حتى إن الوالد لم يعرف ولده

---

(١) السلوك للمقريزي ١/ ٤٠١، ٤١٧ بتصرف ـ مطبعة دار الكتب المصرية وانظر سلسلة أعلام العرب ـ الظاهر بيبرس ـ المؤسسة المصرية العامة.

وانظر مختصر تاريخ بغداد ص ١٢٠ وما بعدها ـ على ظريف الأعظمي مطبعة الفرات ـ بغداد.

وإن الأخ لم يستيقن من أخيه، غير أنهم ما لبثوا أن حصدهم الوباء فلحقوا بمن سبقهم إلى القبور.

من خلال هذا العرض السريع الموجز للتمزق السياسي الذي أصاب العالم الإسلامي عامة والمنطقة التي عاش فيها البعقوبي خاصة، والذي نتجت عنه إبادة أكثر شعبه، واحتلال معظم أرضه، ومحاولة القضاء على علمه وكان سبب ذلك راجعًا ـ كما أشرنا من قبل ـ إلى تمزق العالم الإسلامي واختلاف دوله وتعددها، وتباعد مطامح القائمين عليها وتناقضها.

وعلى الرغم من النكبة الكبرى التي ألحقها المغول ببلاد المسلمين فقد ظلت الثقافة الإسلامية شامخة الذُرى، متينة الجذور، وبقيت الحضارة راسخة متطورة واستمرت العلوم مزدهرة يانعة القطوف، ذلك أن ما صنعه المغول من إحراق التراث الإسلامي وإغراقه، وقتل العلماء وإطفاء أنوارهم التي ملأت المعمورة قد أحدث في النفوس آثارًا إيجابية، فشمر الباقون منهم عن سواعدهم، وعملوا على حفظ ما بقي من هذا التراث العريق، وتجديد ما بدده الغزاة، ولم يقفوا عند ذلك ولم يكتفوا به، وإنما أضافوا إليه ما استحسنوه من معارف الأعداء، وما تخيروه من أفكارهم وثقافتهم، فعادوا بالثقافة الإسلامية في نهاية القرن السابع الهجري إلى أحسن مما كانت عليه.

ب ـ الحياة الاقتصادية

لا ريب في أن الحياتين العلمية والحضارية تتصلان اتصالاً وثيقا بالحياة الاقتصادية وتتوقفان ـ إلى حد كبير ـ عليها والمستوى المعيشي لأية أمة من الأمم والوضع المالي الذي يسودها يتركان آثارا عميقة في الحركتين العلمية والحضارية.

ولذا كان علينا أن نقف على الوضع الاقتصادي للعراق بصورة عامة ولمدينة بعقوبا[1] بصورة خاصة وذلك خلال النصف الثاني من القرن السادس الهجري

(١) بَعْقُوبَا: ويقال لها بَاعَقُوبَا، قرية كبيرة كالمدينة، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ، من أعمال طريق خراسان ـ معجم البلدان ١/ ٦٧٢.

والنصف الأول من القرن السابع .

وقد كانت أبرز جوانب الحياة الاقتصادية في هذه الفترة تبدو في الأمور الثلاثة التالية : الزراعة ، والتجارة ، والصناعة . وسنلم بهذه الأمور إلمامة سريعة .

(١) الزراعة

لقد كان الموالي بصورة خاصة والشعوب المسلمة من غير العرب بصورة عامة يقبلون على الزراعة في هذه الفترة إقبالا كبيرا بل إن الشعب العربي نفسه بسبب استبعاده عن الحياتين السياسية والعسكرية إلى حد كبير، قد أقبل على الزراعة أيضا . لكنه لابد لنا من أن نشير إلى قلة المعلومات الواردة عن جوانب الحياة الاقتصادية في هذه الفترة .

ولعل أوسع كتاب تناول هذا الموضوع هو كتاب «تاريخ التمدن الإسلامي» لجرجي زيدان[١].

وعلى الرغم من أن صاحبه أول من ألف كتابا في هذا الموضوع ، وبذل فيه جهدًا كبيرًا إلا أنه قد سيطرت عليه النزعة المسيحية ، وجعلته ينظر إلى جوانب الحياة نظرة تنبع من نصرانيته ، ومع ذلك فإن الكتاب لم يمددنا بالمعلومات الكافية الوافية ولعل ذلك راجع لقلة المعلومات التي تضمنتها كتب التاريخ عن الجانب الاقتصادي في عصر المؤلف .

فنحن لم نقف على معلومات دقيقة عن الجوانب الاقتصادية التي تبرز موارد الدولة ، ونواحي إنفاقها ، وأنواع الضرائب ، وطرائق جمعها .

كما لم نقف وقوفا دقيقا على نواحي الحياة الاجتماعية من مأكل ومشرب وملبس وغيرها ولا على نواحي الحياة الإدارية وخاصة الدواوين .

---

(١) (١٨٦١ ــ ١٩١٤م) مؤرخ وقصاص عربي ، ولد ببيروت ، وأراد أن يدرس الطب في جامعتها الأمريكية ، ولكنه اختلف مع أساتذتها فقدم إلى مصر ليدخل مدرسة قصر العيني ، ثم تحول إلى الصحافة والأدب . أصدر مجلة الهلال (١٨٩٢م) واستفاد من معرفته عدة لغات أوربية وبعض اللغات السامية . . كتب الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية (بيروت ١٨٨٦م) وتاريخ التمدن الإسلامي (٥ أجزاء) انظر الموسوعة العربية الميسرة (٦٢٠ ط ١٩٦٥م) .

هذا وإن ما لدينا من معلومات يمكننا من القول بأن الحياة الزراعية كانت منتعشة، ويبدو ذلك في كثرة الإقطاع، ولعل هذا الانتعاش قد بدأ في أواخر العهد السلجوقي على يدي والي العراق «مجاهد الدين أبي الخير» الذي ولي الأمر في المدة الواقعة بين سنة خمسمائة وإحدى وعشرين وسنة خمسمائة وأربعين ـ فقد استطاع خلال هذين العقدين من الزمان أن يقوم بكثير من الأعمال المهمة المفيدة في هذا المجال، حيث عمل على إصلاح الأراضي البور وبث النماء في ربوعها بعد أن كانت قاحلة[١].

فعمد إلى تقسيم النهر إلى فروع ليروي منه الأراضي المزروعة، ويرغب الفلاحين بسكناها، وقد تحقق له ما أراده، حيث أقبل عليها السكان وحولوها من أرض موات إلى أرض تنبع بالخير.

سلك الطريق نفسه في مدينة الخالص[٢]، كما أقام سدًّا لمدينة (بهرز[٣]) وأنشأ حول بغداد كثيرًا من الدواليب مما أدى إلى تكاثر النضرة، والرياض الجميلة والبساتين الحافلة بأنواع الثمر.

ولقد استطاع ابن جبير[٤] أن يصف هذه الحركة الزراعية وصفًا رائعًا مشوقًا وذلك في رحلته التي قام بها بعد أداء فريضة الحج وزيارته للعراق عامة وبغداد خاصة.

هذا وإن النشاط الزراعي مرهون بنشاط الحاكم وسعة أفقه وبتقدير العلماء والشعراء والأدباء وأصحاب الرأي لجهوده المباركة.

---

(١) تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ـ بدري محمد فهد ـ ٣٢٥.

(٢) اسم كورة عظيمة من شرقي بغداد إلى سور بغداد (معجم البلدان لياقوت ـ ٢/ ٣٣٩).

(٣) موضع قرب الري، بينها وبين مدينة الري ستة فراسخ (معجم البلدان لياقوت ١/ ٥١٥).

(٤) أبو الحسين محمد بن أحمد بن جُبَير الأندلسي البلنسي. له ترجمة في: شذرات الذهب (٥/ ٦٠)، غاية النهاية: (٢/ ٦٠) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٤٥ ـ ٤٧) نفح الطيب (١/ ٥١٥ ـ ٥٧٥).

ولم يقصر عمله الجليل هذا على جهود الدولة وحدها وإنما أشرك المواطنين مع ولاة الأمر في ذلك ـ وذلك حين قام بتوزيع الأراضي على النشيطين من الرعية إما عن طريق التمليك أو طريق الاستغلال.

** وفيما يلي إيضاح لهذين النوعين من الإقطاع:

يقوم إقطاع الاستغلال على إعطاء قطعة من الأرض لأحد الأشخاص لمدة محددة، وتأخذ الدولة من المستثمر خراج الأرض وتبقى ملكيتها لبيت مال المسلمين.

وقد ظهر هذا النوع من الإقطاع في العراق أول مرة في أوائل القرن الرابع الهجري، وكان ذلك بسبب إفلاس خزينة الدولة، وعجزها عن تسديد أعطيات الجيش وغيره من أصحاب الرواتب، فقام الخليفة بإقطاع المواطنين من مدنيين وعسكريين هذه الأراضي بدلاً من الراتب النقدي.

أما إقطاع التمليك فيقوم على تمليك الأرض للشخص تمليكاً تاماً بحيث يتصرف بها كما يتصرف المالك في ملكه ويورثها لأصحاب الحقوق من أهله، وعلى صاحب هذا الإقطاع دفع العشر لخزانة المسلمين.

ولم يكن حق الإقطاع مقصورا على الخليفة نفسه، وإنما يشاركه فيه زوجاته وجواريه كما كان يشاركه فيه بعض البارزين من وزرائه وولاته.

ومن أشهر المدن التي كانت مطمحًا للراغبين في الإقطاع بنوعيه (دقوقا)[1] التي كانت مستقرا للبعقوبي في كثير من سني حياته، وموطنا له عند وفاته.

فقد تعاقب عليها في تلك الفترة عدد من الأمراء أولهم ملك الدين الذي توفي فيها سنة ست وتسعين وخمسمائة، وآخرهم الأمير سليمان الذي توفي سنة أربع وأربعين وستمائة[2].

---

(١) دَقُوقاء: بفتح أوله وضم ثانيه، وألف ممدودة ومقصورة، مدينة بين إربل وبغداد، معجم البلدان (٢/ ٥٨١).

(٢) تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ـ بدري محمد فهد ـ ٣٢٤ ـ ٣٢٦.

(٢) التجارة

كانت حركة التجارة نشطة نشاطا لايقل عن نشاط حركة الزراعة، وكانت قائمة على الاستيراد والتصدير، وكانت الأسواق عامرة والحركة فيها منتظمة.

ولا ريب في أن السبب في ذلك يعود إلى الخبرة الطويلة التي اكتسبها التجار الذين يمارسون هذه المهنة، وقد كانت بغداد يومئذ عاصمة المسلمين الكبرى، ومحط نظر التجار ومطمحا من مطامحهم في كثير من أقطار العالم الإسلامي، فقد كانوا يجلبون إليها نفائس بلادهم ليبيعوها في أسواقها العامرة.

وقد وصف ابن جبير[١] في رحلته طائفة من بلاد العراق التي زارها وعلى رأسها بغداد وتحدث عن أسواقها الحافلة العامرة، وتجارتها الكثيرة الوافرة وأشاد بتنظيم أسواقها ووصفها بأنها «عظيمة الترتيب».

وقد استمرت هذه الأسواق على حالها من الحركة والنشاط، والتنظيم إلى أن اقتحمها المغول في عام ستمائة وستة وخمسين للهجرة ودمروها تدميرا.

ولقد كان الخلفاء العباسيون وعمالهم يتدخلون في أمر التجارة تدخلا واعيا يهدف إلى تحقيق مصالح التجار أحيانا والمستهلكين أحيانا أخرى وذلك بناء على ما تقتضيه مصلحة البلاد والعباد.

ومن ذلك ما روته كتب التاريخ من أن الخليفة الظاهر بالله قد سمح للتجار بتصدير بعض سلعهم الضرورية إلى خارج العراق وذلك في عام اثنين وعشرين وستمائة رغبة في نشاطهم الاقتصادي، وتحقيقا لفائدتهم، فلما أدى ذلك إلى ارتفاع الأسعار في بغداد ارتفاعا ألحق الضرر بالناس أصدر أوامره بإخراج المخزون من هذه السلع في مخازن الدولة وبيعه للمستهلكين بسعر أرخص من سعر السوق فعادت الأسعار إلى الرخص مرة أخرى[٢].

---

(١) انظر رحلة ابن جبير ص ١٩٣، وما بعدها ـ دار صادر ـ بيروت.

(٢) تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ـ بدري محمد فهد (٣٥٦).

وكانت المواد التي تضرر الناس من بيعها تتصل بحاجاتهم المعيشية وهي: البر، والتمر، والدبس، والسمسم.

هذا ولم يقتصر جهد الدولة في حماية التاجر والمستهلك على بغداد وحدها ولا على بلاد العراق الأخرى فحسب وإنما امتد إلى الأقطار الأخرى التي لم تكن واقعة تحت سلطان الخلافة وقوعا مباشرا. من ذلك أن أحد التجار البغداديين حلت به الوفاة في جزيرة قيس «في بلاد عمان» وقد خلف ثلاثين ألف دينار ذهبا، فوضع أمير المنطقة يده على هذا المبلغ بحجة أنه ثراء فاحش، وأبى أن يدفعه إلى ورثته. فجاءه الوارث بحكم من قاضي بغداد بدفع المال له، فرده على أعقابه ولم يعطه شيئا فلما علم الخليفة بذلك أمر حاكم البصرة بالحيلولة دون وصول التجارة والتجار إلى تلك الجزيرة مما جعل أهلها يضيقون ذرعا بما ألَمَّ بهم وأرغم حاكمها على دفع المال إلى الوارث، كما أرغمه على دفع نصف دخل الجزيرة للدولة العباسية في بغداد عقابا له على ذلك[1].

مما تقدم نستطيع أن نقرر بأن التجارة كانت نشطة في هذه الفترة وأن الرعية كانت تنعم بالرخاء إلى حد كبير وأن أهل العلم كانوا يتمتعون بهذه النعمة، ويتمكنون من الانصراف إلى حياتهم العلمية، ويقدمون للناس ثمرات أفكارهم الثمينة ونتاج عقولهم الراجحة مما نعم به المسلمون في ذلك العصر وما زالوا ينعمون به إلى يومنا هذا، ومن هؤلاء العلماء البعقوبي.

(٣) الصناعة

أخذت الصناعات تنشط في بلاد العراق منذ أوائل الخلافة العباسية، وجعل الناس يقبلون على هذا الجانب العملي من جوانب الحياة إقبالا يذكر فيشكر، وقد كان من مظاهر هذا النشاط وسلامته، أن الأسواق كانت تتنوع بتنوع الصناعات. ولا يخفى على أحد ما في ذلك من أسباب التعاون، والتنافس،

---

(١) تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ـ بدري محمد فهد ـ (٣٥٧).

بالنسبة لأصحاب الصناعات، وما فيه من تيسير الأمور على المشترين حيث يتمكن المشتري من الوقوف على ما في السوق وشراء ما يوافق مزاجه، ويلائم حالته المالية.

ومن أهم هذه الصناعات «صناعة الزجاج»، وهي صناعة عرفها الناس منذ زمن قديم وانتشرت في كثير من أرجاء المعمورة المتحضرة، ولقد تطورت هذه الصناعة في العصر العباسي، وأصبحت متعددة الأغراض فشملت الأكواب والقوارير والقناديل واشتهرت بعض المدن العراقية بإبداع بعض المصنوعات المستخرجة من فاخر الزجاج وذلك كالمناور الجميلة التي تدعى بالثريات وكانت تصنع في النجف مما جعل الناس يطلقون اسم النجفة نسبة إلى البلدة التي صنعت فيها[1].

ولقد أكثر الشعراء من ذكر الزجاج والبللور في أشعارهم والتمثيل بهما، ولعل أروع ما قيل في هذا الصدد قول الشاعر:

إن القلوب إذا تنافر ودها مثل الزجاجة كسرها لا يجبر

ومن أهم هذه الصناعات أيضا صناعة الأقمشة التي تطورت في العصر العباسي تطوراً واضحاً حيث أصبح لكل مدينة من مدن العراق اهتمام ملحوظ بنوع من أنواع الثياب.

وقد اشتهرت بعض المدن بصناعة الثياب الفاخرة، ومن ذلك الثياب العتابية نسبة لمحلة في بغداد، وثياب الكرباس المصنوعة من القطن الأبيض الملائم للأجواء الحارة.

ولم يقتصر الأمر على صناعة الثياب، وإنما كانت تضاف إلى ذلك بعض النقوش الجمالية التي يزدان بها الثوب وضروب من الزخرفة الأنيقة بخيوط الذهب وكانت هناك جماعات من الناس متخصصة في ذلك، ولقد كان تطور صناعة الأقمشة، والتأنق في زخرفتها سبباً في تطور صناعة الأصباغ التي

---

(١) تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ـ بدري محمد فهد ـ ٣٦١ ـ ٣٦٢.

يقتضيها هذا العمل حتى تبدو والرسوم التي تـزدان بها الثياب زاهرة زاهية مزدانة بصور جميلة للأزهار البديعة، والغصون اليانعة، والثمار الشهية.

ولقـد كان من جملـة الأسباب التي أدت إلى تطـور صناعـة الصباغـة في تلك البلاد إقبال النـاس على لبس الملابس الخضر؛ لأنها ملابس أهل الجنة حيث ورد في الكتـاب العزيـز قـوله تعـالى في وصف أهل النعيم ﴿عَـٰلِيَهُمْ ثِيَـابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[1].

كما أقبلوا على لبس السواد الذي كان يمثل اللباس الرسمي لرجال الدولة.

ولا ريب في أن هذه الأسبـاب التي أشرنا إليها كانت في طليعـة العوامل التي أدت إلى تطور صنـاعة الأصباغ، وتقـدمها في بـلاد العراق بعد أن كـان التجار يستوردونها من الهند.

وخلاصة القـول هي أن الوضع الاقتصادي في بلاد العـراق خلال تلك الفترة كان خاضعا لعوامل كثيرة تدفعه تارة إلى الأمام وتجره تارة أخرى إلى الوراء.

وقد كان في مقدمة الأسباب التي أثرت فيه تأثيرا سيئًا ما يلي:

١ ـ القلق السيـاسي بسبب تغير الخليفة الذي كان يخلع ويقتل ويستبـدل به غيره.

٢ ـ الحروب والفتن التي كـانت تقوم بين الفئـات الراغبـة في الحكم والسيطرة على مقدرات الأمة.

٣ ـ الاحتكار والإقبال على التصدير رغبة في الربح الفاحش.

٤ ـ قلـة الأمطار التـي تؤدي إلى الجدب أو كثرة الفيضـانات التـي تؤدي إلى إتلاف المحاصيل الزراعية.

ج ـ الحياة العلمية:

نشطت الحياة العلميـة في هذه الفترة نشاطًـا كبيراً، فالعلماء كانوا يحيـون حياة جادة قليلة التأثر بالأحداث السياسية ـ فقد نبغ في القرن السادس الهجري طائفة

---

(١) سورة الإنسان / الآية ٢١.

كبيرة من أعلام المؤلفين، وتركوا للإنسانية عامة وللمسلمين خاصة من الآثار النفيسة الشيء الكثير.

وكان في مقدمة علماء هذا العصر ابن الجوزي[1] وهو «يوسف بن عبد الرحمن ابن علي بن الجوزي القرشي التيمي البكري البغدادي محيي الدين أبو المحاسن» أستاذ دار الخلافة المستعصمية وسفيرها وهو ابن العلامة أبي الفرج توفي والده وعمره سبع عشرة سنة فكفلته والدة الخليفة الناصر.

تفقه على أبيه وغيره، وولي الحسبة بجانبي بغداد، وصدرت رسائل الديوان إلى مصر والروم والشام والشرق والموصل والجزيرة عدة مرات من إنشائه.

وحدث ببغداد ومصر وسواهما، وقد قتله التتار صبرا هو وأولاده الثلاثة يوم دخول هولاكو بغداد، وقد ترك طائفة من الآثار العلمية وفي مقدمتها «معارك الابريز في تفسير الكتاب العزيز» و«المذهب الأحمد في مذهب أحمد» وقد كان له نظم جيد، وفي كتاب النجوم الزاهرة مختارات من شعره.

وابن الأثير[2] وهو المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري المكنى بأبي السعادات والملقب بمجد الدين.

وهو العالم المحدث اللغوي الأصولي ــ ولد في جزيرة ابن عمر وفيها نشأ ثم انتقل إلى الموصل، واتصل بصاحبها.

---

(١) انظر ترجمته في:
سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٣٧٢ ـ ٣٧٤).
شذرات الذهب (٥/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧).
البداية والنهاية (١٣/ / ٢٠٣).
العبر (٥/ ٢٣٧).

(٢) انظر ترجمته في:
سير أعلام النبلاء (٢١/ ٤٨٨ ـ ٤٩١)
وفيات الأعيان (٤/ ١٤١ ـ ١٤٣).
العبر (٥/ ١٩)
البداية والنهاية (١٣/ ٥٤)
بغية الوعاة (٢/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥)

وقد ألف طائفة من الكتب منها «النهاية في غريب الحديث» و«جامع الأصول في أحاديث الرسول» وهو في عشرة أجزاء وقد جمع فيه بين الكتب الستة، وكتاب «الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف» في التفسير و«المرصع في الآباء والأمهات والبنات».

وقد توفي عام ستمائة وستة للهجرة ـ وللمبارك بن محمد أخوان من كبار علماء المسلمين في عصره أحدهما: علي بن محمد المكنى بأبي محمد والملقب بعزالدين، وقد ولد في جزيرة ابن عمر حيث ولد أخوه وفيها نشأ وسكن الموصل وتجول في البلدان ثم عاد إلى الموصل.

وقد كان منزل عزالدين مجمعا للفضلاء والعلماء والأدباء، ولقد ترك طائفة من الآثار العلمية التاريخية في ذروتها «أسد الغابة في معرفة الصحابة» وقد طبع أكثر من مرة، وهو كتاب مرتب على الحروف و«اللباب في معرفة الأنساب» وقد اختصر به أنساب السمعاني وزاد فيه، وهو مطبوع أيضا.

ومن أهم كتبه «الكامل في التاريخ» وقد رتبه على السنين وبلغ فيه سنة تسع وعشرين وستمائة وذلك قبل وفاته بسنة واحدة أو بعض السنة حيث توفي سنة ثلاثين وستمائة.

أما الأخ الثاني لابن الأثير فهو نصر الله بن محمد[1] الملقب بضياء الدين وهو من أكابر العلماء، وأفاضل الكتاب في عصره، ولد في جزيرة ابن عمر حيث ولد أخواه، وتعلم بالموصل ـ واتصل بخدمة السلطان صلاح الدين، وولي الوزارة للملك الأفضل ابن صلاح الدين في دمشق، ثم انتقل إلى خدمة الملك الظاهر، ثم عاد إلى الموصل، وتولى ديوان الإنشاء لصاحبها عز الدين مسعود، وتوفي في

---

(١) انظر ترجمته في:

سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٧٢ ـ ٧٣).

وفيات الأعيان (٥/ ٣٨٩ ـ ٣٩٧).

العبر (٥/ ١٥٦).

شذرات الذهب (٥/ ١٨٧ ـ ١٨٨).

بغداد سنة سبع وثلاثين وستمائة، وقد ترك طائفة من الكتب من أهمها كتاب «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» وهو من أهم الكتب التي ألفت في هذا الباب وأكثرها شيوعا.

كما كان من أبرز علماء هذا العصر، يحيى بن هبيرة بن محمد بن هبيرة الذهلي الشيباني المكني بأبي المظفر[1]، والملقب بعون الدين، ولقد جمع العلم مع الإدارة وبسطة السلطان حتى غدا من كبار العلماء والوزراء في الدولة العباسية.

نهل من مناهل الثقافة المتنوعة فتملى من الفقه واللغة والنحو والمنطق وصناعة الإنشاء وغيرها من العلوم وقرض الشعر فأجاده.

وقد اتصل بالمقتفي لأمر الله فولاه بعض الأعمال ثم ما لبث أن امتلأ إعجابه به وتقديرا لمواهبه فولاه الوزارة وكان يقول: «ما وزر لبني العباس مثله»[2].

وقد لقب بعون الدين بعد أن كان يلقب بجلال الدين ونعته بالوزير العالم العادل.

ولقد قام ابن هبيرة بشؤون الوزارة حكما، وسياسة، وإدارة أفضل قيام وأكمله، ولقد ظل يلي الخلافة للمقتفي حتى وافاه الأجل فلما آل الأمر إلى الخليفة المستنجد استبقاه في وزارته.

وقد كان ابن هبيرة مكرما لأهل العلم يحضر مجلسه الفضلاء والعلماء على اختلاف علومهم وفنونهم. ولم تحل الوزارة بين ابن هبيرة وبين العلم فصنف طائفة من الكتب منها: «الإيضاح والتبيين في اختلاف الأئمة المجتهدين» و «الإشراف على مذاهب الأشراف» في الفقه، و «الإفصاح عن معاني الصحاح» في اللغة و «المقتصد» في النحو، وقد شرحه ابن الخشاب في أربعة مجلدات، و

---

(١) انظر ترجمته في:

وفيات الأعيان: (٢/ ٢٤٦).

الشذرات: (٤/ ١٩١).

الأعلام: (٩/ ٢٢٢).

(٢) انظر شذرات الذهب (٤/ ١٩١).

«العبادات» في الفقه على مذهب الإمام أحمد، و «أرجوزة المقصور والممدود» في اللغة واختصر كتاب «إصلاح المنطق» لابن السكيت.

وقد توفي سنة ستين وخمسمائة للهجرة.

هذه نماذج من أبرز العلماء الذين يمثلون الحركة العلمية في هذه الفترة، والذين تركوا من الآثار الثمينة ما انتفع بها طلاب المعرفة خلال القرون الماضية، وما سينتفع به المسلمون إلى ما شاء الله.

وقد كان من مظاهر الحركة العلمية في هذه الفترة انتشار الرُبُط[1].

هذا وإن المدارس النظامية والربط التي أنشئت لطلاب العلم لم تؤثر على الحركة العلمية في الجوامع والمساجد التي كانت منذ بناء مسجد الرسول صلوات الله وسلامه عليه في المدينة والتي ظلت دهرا طويلا تمثل الموئل الأول للتعليم.

وخلاصة القول هي أن العباسيين قد بذلوا في هذه الفترة وفيما سبقها من مدة خلافتهم جهودا مذكورة مشكورة في إنشاء المدارس والربط والمكتبات مما أدى إلى ارتفاع المستوى العلمي لا في بلاد العراق وحدها وإنما في العالم الإسلامي كله، وكان سببا في انتشار العلماء في الآفاق، وازدياد حركة التأليف والتصنيف.

واستمرت الحركة العلمية على هذه الحال حتى منتصف القرن السابع الهجري حين سقطت بغداد في أيدي التتار سنة ستمائة وست وخمسين للهجرة وخلت دور العلم من روادها وألقيت عشرات آلاف الكتب في نهر دجلة حتى تغير ماؤه، وانشغل العالم الإسلامي بالغزاة.

---

(١) وهي دور كان ينشئها أهل الخير من محبي العلم والعلماء، ومستضيفي العباد الزهاد، وكانوا يعدون لروادها الطعام واللباس، وما إلى ذلك مما ييسر لهم سبل العيش ليصرفوا إلى ما نذروا أنفسهم له من العبادة والزهادة وتلقي العلم عن أهله.

والربط جمع مفرده رباط، وكان الرباط يعنى عناية فائقة بالدراسة ونذكر على سبيل المثال رباط «ابن النعال» بباب الأزج حيث كان مجمعا لأهل الدين وموردا لطلاب العلم ولا سيما الحنابلة الذين كانوا يرحلون إلى أبي الفتح ابن المنى الفقيه الحنبلي البغدادي للتفقه على يديه وكانوا ينزلون في الرباط المذكور الذي كان من أنشط تلك الربط، وأحفلها بطلاب العلم.

د ـ الحياة الدينية والمذهبية

لقد حكم البويهيون بلاد العراق أكثر من قرن من الزمان حيث بسطوا سلطانهم عليها من سنة ثلاثمائة وأربع وثلاثين حتى سنة أربعمائة وسبع وأربعين.

وكان البويهيون شيعة متطرفين بينما كان الخلفاء العباسيون من أهل السنة، فعملوا على إضعاف الخلافة، والقضاء على هيبتها ودأبوا على نشر معتقداتهم وإعلانها بين الناس فاعتنقها بعض الفئات لإرضاء الحكام ذوي السلطة ورغبة في الإفادة منهم، وبفضل رعاية البويهيين لتلك المعتقدات، سلكت سبيلها حرة طليقة، وبلغ التشيع درجة عالية مرموقة، وجعل الداعون يدعون إليه في رابعة النهار ثم ما لبث أن آل الأمر إلى السلاجقة، وكانوا يدينون بمذهب أهل السنة في معتقداتهم، ويتبعون المذهب الحنفي في أمور دينهم، وعباداتهم، فأعلنوا الحرب على التشيع، وأنصاره، وسلكوا أنجح السبل للقضاء عليه، وكان التعليم من أهم الوسائل التي اعتمدوا عليها في إطفاء نار هذه الفتنة المذهبية، فأسسوا المدارس النظامية.

ولقد عمل على تأسيس هذه المدارس «نظام الملك أبو الحسن الطوسي»[1] فنسبت إليه ودعيت بالنظامية، وقد كان نظام الملك من أشهر وزراء السلاجقة، وقد تولى الوزارة للسلطانين «ألب آرسلان»[2] و«ملكشاه»[3]، ودامت وزارته هذه ثلاثين عاما حتى لقي مصرعه على يدي أحد رجال فرقة حسن الصباح الخارجة على الإسلام، ولما لحق بجوار ربه انتقلت

---

(١) نظام الملك: هو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، أبو علي، نظام الملك. انظر ترجمته في: وفيات الأعيان (١/ ١٢٨ ـ ١٣١). سير أعلام النبلاء (١٩/ ٩٤ ـ ٩٦). طبقات السبكي (٤/ ٣٠٩ ـ ٣٢٩).

(٢) ألب آرسلان السلطان الكبير، الملك العادل أبو شجاع ألب آرسلان محمد بن سلطان جفرييك داودين ميكائيل بن سلجوق من عظماء ملوك الإسلام وأبطالهم، توفي عام ٤٦٥هـ (سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤١٤) وما بعدها.

(٣) محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي: أبو القاسم، من سلاطين السلاجقة كان قوي المعرفة بالعربية، حافظًا للأشعار والأمثال. (الأعلام ٨/ ٥٩).

الوزارة إلى أولاده، واستمرت في أيديهم مدة طويلة.

وأشهر هذه المدارس «نظامية بغداد» التي استقبلها المسلمون بالفرحة، وافتتحها الخليفة العباسي «القائم بأمر الله»[1] في حفل عظيم، وقام نظام الملك بالتعليم فيها، وكان من أشهر أساتذتها الإمام الغزالي[2]، وأبو الحسن الشيرازي[3] وغيرهما.

ولقد كان من أهم أغراض هذه المدارس مقاومة المذهب الفاطمي الشيعي وتعد المدارس النظامية من أعرق المؤسسات العلمية في العالم الإسلامي، وأحسنها وأكملها تنظيما حيث سلكت فيها أفضل الطرق والأساليب التي تُسْلك في الجامعات العالمية اليوم، من حيث اختيار المعيدين، وتوفير الحياة الكريمة للدارسين وذلك بإمدادهم بالمأكل والمشرب والملبس، وسكناهم في أروقة لائقة بأهل العلم ملحقة بهذه المدارس. وقد انتشر طلاب المدارس النظامية في كثير من أرجاء العالم الإسلامي، وتولوا الوظائف المتعددة المتنوعة، ونهضوا بأعباء الدفاع عن مذهب أهل السنة على أكمل وجه.

هذا ولقد ازدادت الحركة العلمية نشاطا على نشاط وذلك بعد أن استوزر الخليفة العباسي شخصية قوية عرفت بالعلم والحزم وشهرت بالحكمة وبعد النظر هي شخصية الوزير العالم ابن هبيرة الذي أشرت إليه من قبل.

وقد اشتهرت هذه الفترة بالمتصوفة كما اشتهرت بالوعاظ الذين حباهم الله كثيراً من مواهب الفصاحة والبلاغة، وقوة التأثير على النفوس والاعتماد على السجع الذي لا تكلف فيه ولا تصنع.

وعلى رأس هؤلاء ابن الجوزي رحمه الله..

---

(١) عبد الله بن أحمد القادر بالله أبو جعفر القائم بأمر الله خليفة من العباسيين، ولي الخلافة بعد وفاة أبيه، كان ورعًا، عادلاً، تقيًا، توفي عام ٤٦٧هـ. تاريخ بغداد ٩/ ٣٩٩ الأعلام ٤/ ١٩٠.

(٢) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء: (١٩/ ٣٢٢ ـ ٣٤٦) وطبقات السبكي: (٦/ ١٩١ ـ ٢٨٩) وفيات الأعيان: (٤/ ٢١٦ ـ ٢١٩)، العبر: (٤/ ١٠).

(٣) أبو الحسن الشيرازي:
أبو إسحاق، إبراهيم بن علي بن يوسف.
انظر ترجمته في: وفيات الأعيان (١/ ٤)، الأعلام (١/ ٤٤)، اللباب (٢/ ٢٣٢).

المبحث الثاني

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الثاني

حياته

تمهيد

لم تعرض كتب التاريخ والتراجم والطبقات العربية شيئًا يذكر لأبي عبد الله البعقوبي، ونجد كثيرا منها قد أغفلوا ذكره، ومن تكلم عنه لم يتطرق لذكر ما يتعلق بحياته وبمركزه العلمي، وذلك على الرغم من أن الدارسين يجدون الكثير وأحيانا الكثير للغاية عن أسماء لم يكن لأصحابها حظ كبير في حمل لواء العلم في عهد من العهود ولا نعرف عنه إلا القليل، ولعل أوسع من كتب عنه ابن العماد في شذرات الذهب وقد بذلت ما وسعني من جهد في سبيل جمع وترتيب بعض المعلومات عن حياته متضمنة :

أ) نسبه

ب) مولده ونشأته

ج) وفاته

د) رحلاته العلمية

هـ) مشايخه

و) جوانب من ثقافته ومؤلفاته

نسبه

هو أبو عبدالله محمد بن أبي المكارم الفضل بن بختيار بن أبي نصر البعقوبي المشهور بالحجة[1].

وقد اختلف المؤرخون في نسبته ـ فابن العماد في شذرات الذهب، وابن رجب في ذيل الطبقات، والزركلي في الأعلام يقولون بأنه (اليعقوبي) بالياء، ولكن بعد

(١) الذيل على طبقات الحنابلة ٤/ ١٢٣ وشذرات الذهب ٥/ ٧٦، ٧٧.

البحث والاستقراء اتضح لنا أنه «البعقوبي» بالباء وليس ـ اليعقوبي ـ بالياء .

ويؤيـد ذلك ما يلي:

أولا ـ ما ذكره صاحب المختصر المحتاج إليـه من تاريخ ابن الدبيثي قال (هو محمـد بن الفضل بن بختيار أبـو عبـد الله بن أبي المكارم الـواعظ البعقوبي كـان خطيبها) فنسبه إلى بلدة بعقوبا[1] بالفتح والسكون وضم القـاف وسكون الواو، والباء موحدة ويقال لها باعقوبا وهي قرية كبيرة كالمدينة بينها وبين بغداد خمسون كيلومترا، تمتاز بجمالها وعذوبة مياهها وكثـرة أنهارها وبساتينها ووفرة نتاجها من الفـواكه والـرطب والليمـون ونحو ذلك حتى أصبحت مضرب المثل في حسنهـا وجودة ثمارهـا . تكثر فيهـا المساجـد والحمامات ـ ويجري في وسطها نهر جلـولا الذي أكسب هـذه المدينة حلة وجمالا تجعل السـاكن فيها يعيش عيشـة راضية ، ونحن نجـد تأثير ذلك على المحـدث الجليل والفقيـه الكبير الحجة البعقـوبي في أسلوبه وفكره ؛ لأن صفاء العيش وجمال الطبيعة يعطي عمقا في التفكير وحلاوة في التعبير، ودقة في الكلام .

ثانيا ـ ذكر المنذري في التكملة لوفيات النقلة ما نصه :

(في الثاني من جماد الأولى توفي الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي المكارم الفضل ابن بختيار بن نصر البعقوبي الواعظ المعروف)[2] .

ثالثا ـ أن أبا عبدالله ولد ونشأ وترعـرع وأخذ العلم ثم تولى الخطابـة في مدينة بعقوبا فنسب إليها ، وكثيرا ما ينسب الرجال المشهورون إلى بلادهم .

ولقد فتشـت في معاجم البلـدان فلم أجد بلدًا في العـراق يحمل اسم يعقـوبا بالياء ولكن الموجود بعقوبا وهي ما زالت تعرف حتى الآن بهذا الاسم[3] .

---

(١) انظر المختصر المحتاج إليه ١/ ١٠٧ .

(٢) انظر التكملة لوفيات النقلة ترجمة رقم ١٧٤٢ .

(٣) انظر معجم البلدان لياقوت الحموي (١/ ٦٧٢) . =

مولده ونشأته

ولد العالم الحجة البعقوبي باتفاق المؤرخين في ربيع الأول من سنة ٥٤٣هـ. قال ابن الدبيثي في تاريخه «قال لي أي البعقوبي ولدت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة»[١].

لكن المصادر والمراجع لم تمدنا بشيء من المعلومات عن طفولة البعقوبي وصباه وإن كان من المفترض أن يكون قد قضى طفولته وصباه في بلدة بعقوبا وقد جرت تقاليد أهل ذلك العصر بأن يلحقوا أبناءهم بالكتاتيب لحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادىء القراءة والكتابة، فالتحق بها وحفظ القرآن وتعلم القراءة.

ولما شب عن الطوق التحق ببعض مدارس بلده وحضر مجالس علمائها من أمثال أبي إسحق إبراهيم بن محمد بن أبي طالب وأبي طاهر المؤمل بن نصر المؤمل وغيرهما ـ مما أتاح له أن يلتهم العلم التهاما.

ولما كانت بغداد آنذاك منارة العلم يؤمها الطلاب من أقطار الأرض لحضور مجالس كبار علماء العصر من أمثال ابن المنى وابن الجوزي فقد قرر الارتحال إلى بغداد لينهل من ذلك المنهل أكثر ويأخذ نصيبه من العلوم والمعارف ويشارك غيره في هذا الخير العظيم ـ فلما وصل إلى مدينة السلام التحق بالمدارس النظامية كمدرسة ابن قيم الجوزية ومدرسة الجيلاني[٢] والشيخ عبد المغيث الحربي[٣]

= وقد أنشد المهدي البصري قصيدة يهجو فيها أهل بعقوبا قال:

ألا قل طرنا والنوال تطوفا ... تقلقله هم عليه حريص

تخاف ببعقوبا إذا جئت مقرا ... لهم يبيت الضيف وهو خميص

(١) انظر المختصر المحتاج إليه ١/ ١٠٧.

(٢) الجيلاني: عبد القادر بن موسى بن عبد الله الجيلاني، من كبار الزهاد والمتصوفين. انظر ترجمته: شذرات الذهب: (٤/ ١٩٨) والأعلام (٤/ ١٧١، ١٧٢)، والنجوم الزاهرة (٥/ ٣٧١).

(٣) عبد المغيث بن زهير بن علوي الحربي، من صلحاء الحنابلة انظر ترجمته في: شذرات الذهب: (٤/ ٢٧٥)، البداية والنهاية: (١٢/ ٣٢٨) الأعلام: (٤/ ٣٠٠).

وغيرهم ممن تفقهوا على مذهب الإمام أحمد في مدرسة أبي الوفاء بن عقيل وأبي الخطاب الكلوذاني وأبي يعلى من مشاهير فقهاء الحنابلة[1].

ورغبة منه في تنمية مواهبه وزيادة علمه قرر الرحيل إلى مدينة (إربل) واستقر بها جريا على عادة طلاب العلم فقد كانوا يسلكون دروب المخاطر والمهالك في سبيل فهم مسألة علمية أو التثبت من سند حديث واحد.

ولما حط الرحال في تلك المدينة سعى للاتصال بعلمائها وأخذ العلم عنهم وما لبث أن أصبح علمًا من أعلامها.

وفي سنة ٦٠٠هـ قرر الرحيل إلى مدينة دقوقا فاستقر في ربوعها وطاب له المقام بها وأصبح خطيبها المصقع وحجتها المعروف لدى عامة الناس وخاصتهم يقول سبط ابن الجوزي في كتابه: مرآة الزمان:

«دخلت سنة ٦٠٠هـ وفي أول هذه السنة سافرت من بغداد إلى الشام وهي أول رحلتي فاجتزت بدقوقا وبها خطيبها ويقال له الحجة وكان يعظ بها روى لنا الحديث وجمع بالعراق من ابن البطي وغيره[2]».

فهذا سبط ابن الجوزي يدل دلالة واضحة على أن الشيخ البعقوبي أصبح علمًا بارزًا حيث يشار إليه بلقبه المشهور بـ (الحجة) مما يدل على سعة علم الرجل، وفقهه واشتهاره بين أهل زمانه.

وفاته[3]

عاش أبو عبد الله أربعةً وسبعين عامًا مجاهدًا في سبيل الله يتعلم ويعلم حتى وافته المنية في جمادي الأولى من سنة ٦١٧هـ في مدينة (دقوقا) رحمه الله وأسكنه

---

(١) راجع ذيل طبقات الحنابلة ٤/ ١٢٣.

(٢) راجع مرآة الزمان ٢/ ٥١٦.

(٣) راجع الذيل على طبقات الحنابلة ٤/ ١٢٣ وشذرات الذهب ٥/ ٧٦، ٧٧.

فسيح جناته وجزاه عن الإسلام والمسلمين عامة وطلاب العلم خاصة خير الجزاء.

رحلاته العلمية:

لا يخفى على كل من لديه دراية أن السفر والارتحال إلى البلاد التي يقطنها العلماء كان لازما لكل من له رغبة في التحصيل العلمي؛ لأن نمو الملكات وقوتها يكمنان في أخذ العلم مباشرة عن أهله فذلك أفضل وأشد رسوخا من أخذ العلم بالقراءة ـ ولذا يقول الإمام الشافعي[1]:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

ولهذا قرر أبو عبد الله الرحيل في طلب العلم حيث ارتحل إلى بغداد وإربل ودقوقا ـ كما ذكرت سابقا ـ وسأتحدث عن كل من هذه المدن الثلاث باختصار.

أ) بغداد

مدينة من كبريات مدن الأرض اختطها السفاح، وبناها المنصور ووضع أول لبنة من لبناتها بيده وقال: «بسم الله والحمد لله، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين، ثم قال: ابنوا على بركة الله».

وقد استحضر لبنائها مهرة الصناع والعمال من الشام والموصل، والكوفة وواسط، وأمر باختيار قوم من أهل الفضل والعدالة والعفة والأمانة والمعرفة بالهندسة فجمعهم وطلب منهم أن يشرفوا على البناء، وكان ممن حضر بناءها أبو حنيفة النعمان والحجاج بن أرطاة[2].

---

(١) انظر ديوان الشافعي ص ٥٢ ـ تحقيق زهدي يكن، دار الثقافة ـ بيروت.

(٢) الحجاج بن أرطاة بن ثور، الكوفي القاضي، صاحب إرسال، عيب عليه التدليس. تهذيب التهذيب (٢/ ١٩٦ ـ ١٩٨)، تذكرة الحفاظ: (١/ ١٨٦ ـ ١٨٨).

وكان أول العمل فيها في سنة مائة وخمس وأربعين وقد أنفق المنصور في بناء بغداد ثمانية عشر ألف ألف دينار، وخص جامعها العظيم، وقصر الذهب الذي أقامه فيها والأبواب والأسواق بكثير من عنايته[1].

وقد مد إليها قناة من دجلة وأخرى من الفرات فكانت كل منهما تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب والأرياض، وتجري صيفا وشتاء فلا ينقطع ماؤها ثم أخذت على مرور الأيام وتعاقب الخلفاء والحكام تبني فيها المدارس والربط، وقد برز آلاف من العلماء في شتى العلوم والفنون[2].

فلم يكن غريبا أن تكون بغداد أول مكان يرتحل إليه أبو عبد الله لينهل العلم من مناهله ويلتقي بكبار العلماء ويحضر مجالسهم، ويتلقى العلم مشافهة عنهم.

وما أن حط رحاله في مدينة النور حتى أم المدارس، والتقى بأكابر علمائها ـ كما سبق أن ذكرته في فصل سابق.

ب) إربل:

بعد أن أكمل أبو عبد الله تعليمه في بغداد على أيدي كبار فقهائها ومحدثيها وأصبح في مصاف العلماء والمحدثين، سافر إلى إربل ـ وإربل بالكسر والسكون وباء موحدة ولام بوزن إثمد وهي قلعة حصينة ومدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسع[3].

وبعد أن حط الرجل رحاله في إربل أخذ يدرس ويحدث فأصبح محدثها المشهور، وتولى الإمامة والخطابة بجامعها.

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي (١/ ٦٧٧ ـ ٦٩٣).

(٢) انظر معجم البلدان لياقوت الحموي (١/ ٦٧٧ ـ ٦٩٣) و«كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار لمحمد بن عبد المنعم الحميري».

(٣) الذيل على طبقات الحنابلة ٤/ ١٢٣ وشذرات الذهب ٥/ ٧٦، ٧٧ ومعجم البلدان (١/ ١٨٦ ـ ١٨٩).

جـ) دقوقا[1]:

العلماء يكرهـون الظلم والطغيان ويحبـون الراعي العـدل في قضائه وتصرفـاته وكـان أبـو عبـد الله يحدث ويـدرس بإربل ولكن بعـد أن آلت ولايتهـا إلى الأمير مظفر الـدين ـ وكان ظـالما لرعيتـه يسلب الأموال من غير وجهها فضـاق بها أبو عبد الله ذرعا، وقرر الرحيل إلى بلد آخر تسمى دقوقا، وهي مدينة تقع بين إربل وبغداد مشهورة لها ذكر في الأخبار والفتوح حدثت بها وقعة للخوارج.

وتمتاز دقوقا بجمالها وخصوبة أرضها وكثرة مياهها ووفرة إنتاجها ولهذا نجد أن الأمـراء يتسابقـون على طلب إقطـاعها، وتسمى رسميـا[2] في الـوقت الحاضر طاووق، وتقع في محافظة كـركوك، واستمر أبو عبد الله في هذه المدينـة وطاب له العيش في ربوعها وأصبح خطيبها المصقع، وحجتهـا المشهور، وفقيهها ومحدثها ويشهد بذلك سبط ابن الجوزي حين زارها سنة ٦٠٠هـ[3].

مكانته ومؤلفاته:

ذكرت فيما مضى أن أبا عبد الله ارتحل من مسقط رأسه بعقوبا التي قضى فيها عصر طفولتـه إلى بغداد مـدينة العلم وما أن حط الـرحل حتى شمر عن سـاعد الجد وسبق الزمن، وأخـذ ينافس أقرانـه ويلازم مشـايخ عصره كابن المنى وابن الجوزي، وعبـد المغيث الحربي وغيرهم، وكل هـؤلاء مـن العلماء المبرزين ومن فقهاء الحنـابلة المشهـورين وما أن لبث برهـة من الزمن حتى أصبح فقيهـاً لامعاً ومحدثـاً حافظـاً يحتل المنصب والمكانـة في البلد الـذي يستقر فيـه فكان خطيبـا مشهورا في مسقط رأسه بعقـوبا ومحدثاً مشهوراً في مدينـة إربل وانتهى به المطاف

---

(١) ويجوز دقوقاء أو دقوقي كما ذكر ذلك ياقوت الحموي في معجمه ـ ٢/ ٥٨١.

(٢) دقوقا لازالت تعرف لدى العامة بهذا الاسم إلا أن الجهات الرسمية أطلقت عليها اسم طاووق.

(٣) انظر مرآة الزمان. ٢/ ٥١٦.

بـدقوقـا وكـان صحيح الأصـول مقتفيا في ذلك مـا سلكـه مشـايخه ناهـلاً من منهلهم .

اشتهر في زمانه بالوعظ والخطابة فكان خطيباً مصقعاً وواعظاً متفنناً في التأثير على قلوب سامعيه فيكسب قلوبهم ويجعل العين تذرف دمعا .

أما عن كتاباته وتآليفه فقد ألف كتاب «غريب الحديث» وحدث به بإربل ولم أجـد لهِ أثـرًا في المكتبات التي فتشـت فيها أثنـاء زيارتي لكثير من المكتبـات في الداخل والخارج ، وكـذلك كتاب شرح العبادات الخمس وهو مـوضوع تحقيقنا وهـو شرح للعبادات الخمس الـذي ألفه العـلامـة شيخ الحنابلـة أبو الخطـاب الكلوذاني ، وقد انتهى من تأليفه سنة ٥٨١هـ ثم قرأه على شيخه وعالم زمانه ابن المنى فأعجب به وكتب له عليه (قـرأه على مصنفه الشيخ الأجل العالم الفقيه بهاء الدين حجة الإسـلام قراءة عالم بما فيه من غرائب الفـوائد وعجائب الفرائد)[1] . وقرئت على شيخ الإسلام ابن تيمية .

هذه المخطـوطة وجدتها ضمن مكتبـة الشيخ (صالح السليم) بمدينـة عنيزة فتفضل بإعطائي المخطوطة عارية مدة كافية للنسخ وكان ذلك بمساعدة الشيخ الجليل محمـد بن عثيمين فجـزاهما الله خير الجزاء على مـا صنعـا معي من جميل خدمة للعلم وطلابه .

تتكـون هـذه المخطوطـة من ١٥٢ صفحـة من الحجم المتـوسط كتبت بخط واضح بقلم محمد بن أبي منصور بن نحسل الـدقي في عام ٥٨١هـ ، وحيث إن هذه المخطـوطة تميـزت بأسلوب علمي جيـد في عرض المسـائل الفقهية ، وذلك بحرص المؤلف رحمه الله على تعقب كل مسألـة بذكر العلة والـدليل لكل أحكام المسائل الواردة و إن كان أحيـانا يتكلف في استنباط بعض العلل والحكم إلا أنها

---

(١) راجع شذرات الذهب ٥/ ٧٦، ٧٧ والذيل على طبقات الإمام أحمد ٤/ ١٢٣ .

تعتبر طريقة فريدة، وفي اعتقادي أنه لم يسبق من قبل هذا المنهج في المذهب الحنبلي.

الكتاب ليس كتاب خلاف مسائل، بل هو كتاب مقتصر على المذهب الحنبلي يذكر في الغالب أكثر من رواية في المسألة ويذكر أحيانا رأي أحد الفقهاء الثلاثة.

بدأ مؤلفه من باب الطهارة إلى نهاية الحج، وقد سماه العبادات الخمس مع أن العبادات أربع إلا أنه من قبيل التغليب حيث اعتبر الطهارة عبادة مستقلة بنفسها.

والكتاب لا يوجد فيه أي سقط، ويؤكد ذلك أن الناسخ يضع في آخر كل صفحة أول كلمة من الصفحة التالية. سلك المؤلف رحمه الله في شرح المخطوطة بأن مزج الشرح مع النص بحيث إن القارئ لا يستطيع غالبا التفريق بين الشرح والنص. لهذا آثرت عدم التفريق بين النص والشرح.

إن من أهم الأسباب التي دعتني لاختيار هذه المخطوطة القيمة:

أولا: ما ذكرت آنفا من الأسلوب الفريد الذي تتمتع به هذه المخطوطة من اقتران كل مسألة بالدليل والتعليل.

ثانيا: حفاظا على هذه المخطوطة من الضياع لا سيما وأنها نسخة وحيدة.

ثالثا: تقديم جهد متواضع في مجال الفقه الإسلامي لكي أتيح الفرص لطلاب العلم والباحثين من الاستفادة من هذه المخطوطة التي حازت على ثناء كثير من العلماء الذين اطلعوا عليها.

obeikandl.com

المبحث الثالث

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الثالث

أ ـ شيوخ البعقوبي

الرحلة في طلب العلم ـ كما ذكرت آنفا ـ مفيدة وذلك ؛ لأن بعض البشر يأخذ معارفه وأخلاقه وما ينتحل من المذاهب عن بعض وذلك عن طريق التلقي والتلقين تارة وعن طريق المحاكاة تارة أخرى ، إلا أن حصول الملكات عن طريق المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة ورسوخها . فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ وقد رحل أبو عبد الله إلى مدينة بغداد ودرس وتعلم على أيدي كبار الفقهاء والمحدثين فكان مثالا رائعا لطالب العلم المجد في تحصيله الساعي إلى اغتراف العلم من مناهله ما وسعه ذلك وهو في كل حياته التي عاشها لم ينقطع عن طلب العلم والتحصيل في شتى العلوم والفنون على أيدي كبار العلماء آنذاك . . وكان من الذين حفظ التاريخ لنا أسماءهم :

أبو الفتح ابن البطي وعبد المغيث الحربي وابن المنى الحنبلي وابن الجوزي وأبو الفتح بن شاتيل وعبد القادر الجيلاني وأبو الوقت[1] .

وسأتكلم عن حياة بعض شيوخه البارزين :

١) الجيلاني

هو عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن محمد محي الدين الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي من كبار الزهاد .

ولد سنة ٤٧١ هـ وتوفي سنة ٥٦١ هـ ، طلب العلم في صغره وحفظ القرآن وتفقه على مذهب الإمام أحمد على يد أبي الوفاء ابن عقيل وأبي الخطاب وأبي

---

(١) انظر ذيل طبقات الحنابلة ٤/ ١٢٣ .

الحسين محمد ابن القاضي أبي يعلي. جد في طلب العلم والتحصيل حتى فاق أهل وقته في علوم الدين فوقع له القبول التام مع القدم الراسخ في المجاهدة.

تولى الرئاسة والتدريس في المدرسة التي أنشأها بما جمعه من أموال الأغنياء وجهد الفقراء في المشاركة في إنشاء هذه المدرسة. ولقد أصبح طلاب العلم يؤمون هذه المدرسة ويفدون عليها من أقطار العالم الإسلامي للتعلم والتفقه في الدين فكان الشيخ العلامة عبد القادر هو الذي يقوم بالتدريس في هذه المدرسة وبعلمه ودينه كسب قلوب العامة والخاصة وأصبح الناس يعظمونه ويجلونه.

التحق أبو عبد الله بهذه المدرسة التي عرفت واشتهرت بالمدرسة الجيلانية وأكب على دروسها لكي يلحق بالركب ويسبق أقرانه[1].

٢) ابن المنى

هو نصر بن فتيان بن مطر النهرواني البغدادي الحنبلي. يعتبر ابن المنى مرجع الناس في الفقه في زمانه فهو فقيه العراق وشيخ الحنابلة على الإطلاق.

ولد سنة ٥٠٥ هـ وتوفي سنة ٥٨٣ هـ وهو يتمتع بشمايل وأخلاق كريمة حيث عرف بالتواضع والورع والزهد والعبادة، وكان يسير على منهاج السلف الصالح في عقيدته ومذهبه، تفقه على يديه خلق كثير.

يقول ناصح الدين بن الحنبلي (رحلت إليه ـ أي ابن المنى ـ فوجدت مسجده بالفقراء والقراء معمورا وكل فقيه عنده من فضله وأفضاله مغمورا فأنخت راحلتي بربعه، وحططت زاملة يقيني على شرعه فوجدت الفضل الغزير والدين القويم المنير فتلقاني بصدر بالأنوار شرح وفتح الله عليه، حفظ القرآن الكريم وهو في حداثة من سنه ولاحت عليه أعلام المشيخة).

---

(١) شذرات الذهب ٥/ ٦٧ ـ ٧٧ والأعلام (٤/ ١٧١، ١٧٢).

ولا عجب إذا انصرف أبو عبد الله إلى عالم كهذا العالم رغبة في أخذ العلم من معدنه[1].

٣) ابن الجوزي

هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القريشي البغدادي الحنبلي ولد في سنة ٥٠٨ هـ وتوفي سنة ٥٩٧ هـ. يعتبر ابن الجوزي رحمه الله من كبار علماء الحنابلة فهو فقيه واعظ وخطيب ومفسر ومحدث وشاعر وأديب. له تصانيف كثيرة في شتى أنواع العلوم والفنون وفي مقدمتها التفسير والحديث والفقه والزهد والوعظ والأخبار والتاريخ والطب حتى زادت تصانيفه على ثلاثمائة مصنف.

تلقى العلم على يد عشرات العلماء، وكان يعظم أبا الوفاء ابن عقيل ويجله. وقد عظم شأنه وعلا صيته وكان يتمتع بصفات عالية من الصلاح والعفاف ويحب المرح وطيب الكلام، وكان لا يأكل من جهة لا يقطع بحلها مخافة من أكل ما يشوبه الحرام، وقد أصبح إمام عصره في الوعظ وسائر العلوم وكان يحضر مجلسه خلق كثير.[2]

---

(١) راجع الذيل على طبقات الإمام أحمد ٤/ ١٢٣.

(٢) راجع شذرات الذهب ٥/ ٧٦، ٧٧ الذيل على طبقات الحنابلة ٤/ ١٢٣.

ب ـ أبو الخطاب الكلوذاني

نسبـــه:

هو محفوظ بن أحمد بن الحسن بن أحمد الكلوذاني أبو الخطاب البغدادي .

مولـــده :

ولـد أبو الخطـاب رحمه الله في الثـاني من شهـر شوال مـن عام اثنين وثـلاثين وأربعمائة من الهجرة (٤٣٢) هـ .

مكانتـــه العلميـــة:

إن أبا الخطـاب يعتبر أحد أئمـة المذهب الحنبلي وأعيانـه ومن كبـار مجتهدي فقهاء عصره، أخـذ العلوم والمعـارف من كبار علماء زمانـه، فسمع الحديث من القاضي أبي يعلى وتفقه على يـديه وقرأ الفرائض على أبي عبـد الله ابن الونى وبرع فيها .

نظرا لما يتمتع بـه أبو الخطـاب من صفاء الـذهن وقوة الحفظ وسرعـة البديهة أصبح علما يشـار إليه بـالبنـان فهو إمـام وقتـه وفريـد عصره، لـذا فهو مقصـد لطلاب العلم .

ممـا يتميز بـه حسن الخلق فقد كـان ظريفـا مليح النادرة سريع الجواب حـاد الخاطـر كامل الـدين غزيـر العقل جميل السيرة مـرضي الفعال محمـود الطريقـة صحيح الاعتقـاد أديبا فلـه في الشعر بـاع طـولي ومن أشعاره اللطيفـة قصيدتـه الدالية وهي :

دع عنك تـــذكـــار الخليط المنجـــد والشـــوق نحـــو الآنســـات الخرد
والنـــوح في أطـــلال سعـــدى وإنما تـذكـــار سعـدى شغـل لمن لم يسعـد
واسمع مقـــــالي إنْ أردت تخلصـــاً يـــوم الحســـاب وخـــذ بهذا تهتـــدي

مؤلفاتــه:

لم يكن اهتمام أبي الخطـاب قاصرا على التـدريس والفتـوى بل كان لـه اهتمام كبير. بالتأليف والتحقيق في كثير من مسائل الفقه والأصول .

وخير شـاهد مـا تركـه لنا من مـؤلفات قيمـة في مجال الفقه ومن ذلك كتـاب الانتصار في رؤوس المسـائل الكبار[١]، وكتاب العبادات الخمس[٢] والتهذيب في علم الفـرائض[٣] وفي الأصـول التمهيد وغيرهـا من الكتب العلميـة النافعـة الفريدة .

وفاتــه:

بعد عمـر قضاه في رحاب العلم والمعرفـة انتقل إلى جوار ربه يـوم الأربعاء في الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٥١٠ هـ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .[٤]

---

(١) حقق من هذا الكتاب جـزءًا لا بأس به في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنـورة حيث قام بعض الباحثين بدرجـة الماجستير والدكتـوراه بتحقيق مسائل الطهـارة والصلاة والـزكاة . وقـد طبع الكتاب في ثـلاثة أجزاء .

(٢) وهو كتابنا هذا .

(٣) حقق هذا الكتـاب أيضا ، وقـد اعتمد محققـه على نسختين إحداهما مشهورة وهـي نسخة تشستربيتي والأخرى كانت في عداد المفقودات وهي نسخة تركية من مكتبة ملا .

(٤) راجع المنهج في تراجم الإمام أحمد ترجمة رقم ٧٤٠ والذيل على طبقات الحنابلة ٣/ ١١٦ ، ١٢٦ .